كيف وجدت الاشتراكية لها سوقاً ؟

تبين لنا من دراستنا السابقة إفلاس الاشتراكية الثورية العربية ، وعجزها وفشلها فى كافة الميادين .. ومن هنا يقفز إلى الخواطر وعلى الألسنة سؤال : إذا كانت الدعوة الاشتراكية بهذا الضعف ، أو هذا القصور ، وهذا التناقض ، فكيف إذن وجدت لها أذناً صاغية ، أو سوقاً نافقة ، عند بعض الشبان ، وبعض الفئات فى البلاد العربية والإسلامية ؟

والجواب نوضحه فيما يلى :

● اشتراكية بالدبابات :

أولاً : إن الاشتراكية لم يكن لها نفاق ولا رواج ، ولا تكاد تجد مَن يصغى إليها فى بلادنا العربية والإسلامية ، للشعور العام بأنها تصطدم بنظام الإسلام للحياة والمجتمع - وبأن فى عدالة الإسلام - وهى عدالة الله - ما يغنى عنها ، ويتضمن أحسن ما فيها ، مع التنزه عن تطرفاتها ونقائصها .

ولكن الذى حدث أن الاشتراكية كزميلتها الليبرالية الديمقراطية ، كلتاهما فُرِضت من فوق .. كما قال « برنارد لويس »[1] .. الليبرالية فرضها الاستعمار ثم خلفاؤه من الحكام الوطنيين .. والاشتراكية فرضتها الانقلابات العسكرية بالدبابات والمدرعات .

يذكر « برنارد لويس » فى كتابه عن « الغرب والشرق الأوسط » أن الاشتراكية لم تأت تلبية لطلب شعبى ، أو رغبة جماهيرية ، ولا جاءت نتيجة

---

(١) راجع ما نقلناه عن « برنارد لويس » فى كتابنا هذا .

لانتصار الحركة الاشتراكية أو نجاح الطبقة العاملة ، بل كانت نتيجة قرار نظام حكم عسكرى .

وبعد وثوب الاشتراكية على الحكم ، استطاعت بالترغيب والترهيب ، وبالدعاية والتحبيب ، أن تكسب لها بعض الأنصار .. ومن خصائص عصرنا - كما قال « برتراند رسل » - أن الحكومة تستطيع بأجهزتها الجبارة التأثير على أفكار الشعب .

ولا عجب أن أصبحت أجهزة الإعلام والتوجيه والتربية والتعليم كلها تحت يد الحكم الاشتراكى .. وباتت تصوغ الأفكار والأذواق للناشئة وللشعب وفقاً للأيديولوچية الاشتراكية ، وإن لم توفق فى ذلك - ولله الحمد - كانت تتمنى ، كما بينت مظاهرات الطلبة المصريين فى سنة ١٩٦٨ ، وآراء الشعب بعد تغيير مايو ١٩٧١ .

ومما لا ريب فيه أن كثيراً من الناس هم أنصار الحكم لا أنصار المذهب ، فإذا تغير الحكم تغير اتجاههم .. شعارهم المثل القائل : در مع الأيام إذا دارت ! وقول الشاعر :

ودارهم ما دمتَ فى دارهم وأرضهم ما دمتَ فى أرضهم !

فهو اشتراكى فى عهد الاشتراكيين ، وديمقراطى فى عهد الديمقراطيين .. وهو ملكى مع الملكيين ، وجمهورى مع الجمهوريين .

* *

● الاشتراكية تستخدم الدين لتثبيتها :

ثانياً : إن الاشتراكية قد استطاعت - بذكاء ومهارة - إلى حد كبير أن تستخدم الدين - أو على الصحيح : بعض المتزيين بزيه والمنتسبين إليه للأسف - فى ترويجها وقبولها والإقرار بشرعيتها .

فقد حاول هؤلاء المخادعون والمخدوعون أن يظهروها أمام الشعب بصورة

« العدالة الاجتماعية » التى يأمر بها الإسلام ، ويدعو إليها .. واستغلوا بعض الآيات والأحاديث والسوابق الإسلامية فى تثبيتها .. فعل ذلك بعضهم عن خبث وسوء طوية ، وبعضهم عن غفلة وحسن نية .. كما استغل الاشتراكيون بعض الكتب الإسلامية التى تحمل اسم الاشتراكية عنوانًا لها وإن أضيفت إلى الإسلام ، ليبرروا بها اشتراكيتهم العلمانية ، مع مخالفتهم لروحها ، ومناقضتهم لوجهتها الأساسية .

ولو كانوا صادقين حقاً لاتجهوا إلى الإسلام نفسه ، وإلى الإسلام كله ، وإلى الإسلام وحده ، كما بيّنا ذلك من قبل .

المهم أن هذه المحاولات كان لها أثرها بدون شك لدى فريق من الناس ، صدّقوا أن الاشتراكية من الإسلام ، أو أن الإسلام اشتراكى .

ولا شك أن كثيراً من هذا الفريق قد انكشفت لهم الحقيقة فيما بعد ، وعرفوا ما هى الاشتراكية وما هو الإسلام ، ولكن بعد أن استفادت الاشتراكية منهم فى تثبت قوائمها فى المنطقة يوم لم يكن لها سوق ولا عملاء .

* *

● هواية التغيير لدى بعض الناس :

ثالثاً : ومما ساعد على رواج السلعة الاشتراكية أن بعض الرجال يحملون مثل عقلية نساء هذا العصر - الأوروبيات والمتأوربات - فهم يجرون وراء « موضة الأفكار » كما تجرى النسوة وراء « موضة الأزياء » !

إنهم يريدون التغيير لمجرد التغيير ، ويتبعون الجديد ، لا لأنه حق ، أو لأنه نافع ، بل لأنه جديد وكفى !

لقد رحّب سَلَف لهم بالليبرالية يوم كانت الليبرالية بدعاً جديداً من صادرات أوروبا إلى الشرق .

فلما دار الزمن على سلعة الليبرالية وانخفض سعرها فى سوق الأفكار

والمذاهب ، وظهرت « الاشتراكية » جديدة براقة ، تحوطها الدعايات ، وتضخمها التهاويل ، سارع هؤلاء إلى الارتماء فى أحضانها .. ولا تستبعد إذا ظهرت بدعة فكرية وسياسية أحدث من الاشتراكية ، أن يكونوا أسرع إليها من السيل إلى منحدره .. عقلية الذى تستهويه كل لعبة مستحدَثة يقع عليها بصره ، فيتشبث بها ويدع لعبته القديمة من أجلها ، ولعل الأول أرفع قيمة وأغلى ثمناً .. ولكن « القيمة » لا تهم الطفل إنما يسيل لعابه وراء الجدة ، فالجديد أفضل من القديم ، والأجد أفضل من الجديد !

* *

● الاشتراكية شعار لضرب الإسلام من الحاقدين عليه :

رابعاً : وشىء آخر ينبغى أن نذكره هنا بصراحة .. ذلك أن بعض الناس يحتضنون المبدأ الاشتراكى ، لا رغبة فى الاشتراكية ، ولا إيماناً بها ، ولكن ليتخذوا منها « قناعاً » يتسترون تحته للكيد للإسلام وأهله ، والتنفيس عن أحقاد تآكل صدورهم من قديم ضد هذا الدين ، وهم يعلمون أنهم لو حاربوه تحت عنوان العنصرية الدينية أو الطائفية المكشوفة ، لأثاروا عليهم الحمية الإسلامية التى لا يلبث شررها أن يستحيل إلى نار مستعرة ، والتى من شأنها أن توحِّد الصف المختلف ، وتجمع الأمة المفترقة ، وتدفعها فى وجه عدوها صفاً متماسكاً كالبينان المرصوص .. وقد جرّبوا أثر هذه الحمية من قبل ، أيام نور الدين وصلاح الدين .

ومن هنا أعرض أساتذتهم فى الغرب عن أسلوب « بطرس الناسك » البدائى ، ولم يرفعوا هذه المرة شعار « الصليب » ولم يتنادوا بإنقاذ « قبر المسيح » ويذرفوا عليه دموع التماسيح ، ولو فعلوا لفشلوا من أول الطريق .. وارتدت سهامهم إلى نحورهم .. ووجدوا أن الحل الأمثل أن يتاجروا هذه المرة بالسياسة لا بالدين ، وأن يوعزوا إلى أوليائهم وتلاميذهم ليتبنوا شعار « الثورية »

بدل « الصليبية » . ويتعلقوا باسم « ماركس » لا باسم « المسيح » ، ويتنادوا بإنقاذ الطبقات الكادحة بدل إنقاذ المهد وكنيسة القيامة ! ويتحدثوا باسم « الجماهير » لا باسم طائفة محدودة مسحوقة .

وكانت حيلة بارعة حقاً ، انطلت على كثير من المسلمين « الطيبين » ! فصدّقوا - فى بلاهة - أن لويس عوض وغالى شكرى وميشيل عفلق وحبش وحواتمة .. وغيرهم من أحفاد الصليبيين والباطنية والدونمة وأمثالهم ، يذوبون رقة « ثورية » وحناناً « اشتراكياً » على « الجماهير » المسلمة ، وطبقاتها العاملة الكادحة !

ومعنى هذا أن هذا النوع من اليساريين التقدميين لم يعتنقوا اليسار حباً فى الاشتراكية ، ولكن كراهية فى الإسلام ، ومحاولة لضربه بسيف غير دينى ، وبيد لا تُتهم بالتعصب ، إنما هى يد تقدمية تحررية ! والأولى أن تكون هذه اليد من أبناء المسلمين أنفسهم .. وقد كان .. فبعد أن كانت الأحزاب اليسارية الماركسية أول الأمر تضم أفراداً كلهم من غير المسلمين (كما كان أعضاء الجمعيات السرية القومية تماماً فى عهد العثمانيين) سعوا بهمة وجد حتى ضموا إلى صفوفهم عدداً من أبناء المسلمين ، ثم تتابع السيل ، ونجحت الخطة بغير دوى ولا ضجيج .

لقد كانت فرصة ذهبية لم تحلم بها تلك الطوائف لمدى ثلاثة عشر قرناً أو تزيد ، أن يصبح « الكفار » المغضوب عليهم والضالون فى نظر المسلمين « أئمة » يتتلمذ عليهم أتباع محمد ، وتلاميذ القرآن .. وأن يقبلوهم معلمين لهم ، وقادة للفكر فيهم ، و « مهندسين » يقوم على « تصميمهم » العبقرى الخلاّق (!!) البناء السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى للمجموعة العربية من محيطها الهادر إلى خليجها الثائر ! كما يقولون .

* *

● فساد « اليمين » فى بلاد العرب والمسلمين :

خامساً : وأهم من ذلك كله فى رواج الدعاية الاشتراكية وعلو صوتها . هو : فساد ما يسمى بـ « اليمين » فى بلاد العرب والمسلمين . هذا اليمين الغبى العاجز عن تطوير نفسه [١] ، والتخلص من عقده ، ومعالجة أخطائه وانحرافاته .. هذا اليمين الذى دمره ترفه وعبثه وغفلته وفساده فى أكثر بلاد العرب ، والذى بقى منها تميد الأرض تحت قدميه ، وهو لا يزال غارقاً فى النعيم ، راتعاً فى اللهو ، متمتعاً بالامتيازات ، غافلاً عما يدور من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وشماله ، وسيظل فى هذه الغفلة وهذا الغباء حتى يحق عليه القول ، فَيُدَمَّر تدميراً .

هذا اليمين الذى يحاول الإصلاح بالترقيع ، ويعالج الأمراض الفتّاكة بالأقراص المسكنة ، ويأخذ من الدين القشور دون اللباب ، ويكتفى بالعَرَض دون الجوهر .

---

(١) اذكر هنا مثلاً واحداً قريباً ، فيه أكبر الدلالة على خيبة اليمين العربى . ذلك هو فشل « اتحاد الإمارات العربية التسع » فى الخليج . فقد عجز حكام هذه الإمارات ، التى لا يتجاوز سكانها الأصليون نصف مليون نسمة - عن إقامة « اتحاد » بينها ، مع ضرورته الحيوية لنمو البلاد وسلامتها واستقرارها . ولم تستطع محاولات المخلصين فى إنجاح الاتحاد المنشود ، ولا مساعى السعودية والكويت المتكررة للوساطة والتقريب ، أن تحل العقد ، وتقرب الشقة . وانتصرت الأنانيات والعصبيات والأهواء الداخلية والضغوط الخارجية الخفية ، على المنطق وعلى المصلحة العامة المتوخاة للمنطقة من وراء الاتحاد .

وكان آخر الأنباء انفراد ست إمارات من إمارات « الساحل المتصالح » (تأمل هذه التسمية العجيبة التى توحى بأن الأصل فيما بين هذه الإمارات هو التنازع والخصام !) السبع بعمل اتحاد ضيق صغير فيما بينها ، وبقيت واحدة من السبع خارج هذا الاتحاد ، كما بقيت الإمارتان الكبيرتان : البحرين وقطر مستقلتين عنه أيضاً .

ومعنى هذا أن يكون فى هذه الرقعة التى تضم نصف مليون ثلاث دول أو أربع ، لكل منها سفاراتها وقناصلها ومندوبها ، وغير ذلك مما يحتاج إلى نفقات وتكاليف لا ضرورة لها .

هذا اليمين الذى يحلو لبعض الناس - قصداً - أن ينسبوه إلى الإسلام ، وهو يقاوم الحركات الإسلامية الواعية ، كما يقاومها اليسار ، وإن اختلفت الأساليب .

ضعف هذا اليمين وعجزه وفساده هو الذى فتح سوقاً لليسار الثورى ، وإن كان لا يقل عنه عجزاً وفساداً .

وقد حُكِى فى الأساطير : أن ثعلباً ضغط على أرنب ، فصرخت .. فانتفش الثعلب وانتفخ .. فقالت له الأرنب : ليس لقوتك ، ولكن لضعفى !

فإذا راج اليسار لدى فريق من الناس ، فليس ذلك لقوة اليسار ، ولكن لضعف اليمين !

هذا اليمين الذى يعبث بالألوف والملايين ، والشعب من حوله يبحث عن لقمة تغذيه ، أو ثوب يواريه ، أو بيت يؤويه ، فلا يكاد يجده .. هذا اليمين هو أكبر داعية إلى الشيوعية والاشتراكية الثورية ، إنه يحاربها بأقواله ، ويدعو إليها بتصرفاته وأعماله

* *

سادساً : رواسب الكراهية والنقمة التى حفرها الغرب المستعمر فى أنفس العرب والمسلمين ، منذ احتلاله لديارهم وتحكمه من رقابهم ، وإهانته لكرامتهم ، وتحديه لدينهم ، وتعويقه لدنياهم .. وهذا جعل كل معارض للغرب ، وكل متحدّ له - أياً كان مذهبه - قريباً من قلوب العرب والمسلمين ، على حد قول القائل : « عدو عدوك صديقك » !

ولا زلت أذكر كيف كانت عواطف جمهور الناس فى بلادنا - إبّان الحرب العالمية الثانية - مع الألمان ضد الحلفاء ، واعتبر بعض الناس « هتلر » سيفاً من الله سُلَّ للانتقام من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من الكفرة المستعمرين ، حتى كان بعض العوام يسمونه « الحاج محمد هتلر » !!

وهو لون من التنفيس أو المقاومة السلبية ضد الغرب المتسلط البغيض .

ولقد زاد من موجة العداء للغرب موقفه من قضية فلسطين .. وتأييده الدائم لإسرائيل ، ودوره من قبل فى خلقها فى هذه المنطقة من عالمنا العربى الإسلامى خاصة .. وبروز الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الدور ، بوصفها الظهير العسكرى والسياسى والاقتصادى لإسرائيل .

هذا الموقف الغربى المتحيز الجائر .. جعل بعض الناس ينظرون بعين السخط إلى أنظمة الغرب الذى ذاقوا على يديه الصعاب والعلقم ، وينظرون بعين الرضا إلى ما يجرى من قِبَل خصمه « الأيديولوچى » وهو الاتحاد السوڤييتى ، والمعسكر الشرقى ، لم يكن ذلك حباً فى زيد ، ولكن كراهة فى عمرو .

ثم لما بدأت صلات بعض البلاد العربية تقوى بالاتحاد السوڤييتى - عن طريق السلاح والخبراء والقروض والدعاية - وبدأ السوڤييت يغيِّرون من موقفهم - شيئاً ما - تجاه القضايا العربية ، وفقاً لمخططهم فى كسب المنطقة والنفوذ إليها - كان لذلك أثره فى الغزو الفكرى الماركسى ، وفى التأثير على الرأى العام العربى والإسلامى .

صحيح أن للاتحاد السوڤييتى وجهاً استعمارياً آخر .. فقد ضم بلاداً إسلامية عريقة إلى جمهورياته بالقوة ، وفرض عليها الشيوعية بالإكراه ، وجعل يبيد العنصر الإسلامى بين ربوعها فى دهاء وصمت .. كما أن له مواقفه فى خلق إسرائيل وإبقائها [1] ، وما زال يرى أن إسرائيل خُلقت لتبقى .. ولكن هذا كله مطموس مغيب عن الشعوب بتأثير الدعاية من جانب السوڤييت ، والجهل من جانب المسلمين بالقضايا الإسلامية .

فإذا كان اليمين العربى - كما رأينا - يدعو إلى الماركسة بسلوكه المنحرف ، وترفه المهلك ، فإن اليمين الغربى - بتحيزه الفاضح ، وجوره البيِّن - هو الذى يدفع الناس نحو الاشتراكية دفعاً .

* *

(١) انظر : موسكو وإسرائيل - دراسة مدعمة بالوثائق لبيان دور موسكو فى خلق إسرائيل وإبقائها للدكتور عمر حلبق .

● إفلاس الليبرالية الديمقراطية :

سابعاً : قصور الليبرالية الديمقراطية - أيديولوچية ونظاماً - على المستوى النظرى والعملى ، وثبوت فشلها وعجزها عن تلبية حاجات الإنسان النفسية والمادية ، والوفاء بحقوقه الاقتصادية والسياسية ، بسبب تصورها الناقص للحياة والإنسان ، وقيام نظامها الاجتماعى على أساس أن الفرد هو الأصل فى الدولة ، وهى إنما خُلقت لمصلحته ، وهو حر حرية مطلقة فى تصرفاته ونشاطاته كلها : الاقتصادية والفكرية ، والخُلُقية .. ومهمة الدولة مقصورة على تنسيق حريات الأفراد حتى لا تتصادم .. أو على حفظ الأمن وحماية المِلْكية الخاصة (حماية الذين يملكون من الذين لا يملكون) .

ومعنى هذا أن تصبح الدولة حارساً لأملاك الأغنياء ، لا خادماً لمصالح الفقراء .. وتصبح حامياً لمكاسب الأقوياء ، لا عوناً وقوة للضعفاء .

معنى هذا : أن تكون الدولة حامية للإلحاد باسم الحرية الفكرية ، وللإباحية باسم الحرية الشخصية ، وللفوضى باسم الحرية السياسية ، وللمظالم الاقتصادية باسم الحرية الاقتصادية ، أو الملكية الفردية !

وثمرة هذا كله ، تفكك المجتمع ، وانهيار الأخلاق ، وبلبلة الأفكار ، وانتشار المظالم ، وثورات الأحقاد ، والبحث عن بديل - أى بديل - عن هذا النظام الفاشل الفاسد ، وهذه « الأيديولوچية » القاصرة العاجزة .. وهو ما جعل الباب مفتوحاً أمام الاشتراكية الثورية .

ولقد رأينا من المفكرين الغربيين أنفسهم مَن نقد الديمقراطية الغربية نقداً صارماً بيَّن عجزها وقصورها .. من هؤلاء المفكر الكاثوليكى « چاك مارتيان » الذى يقول :

« إن سبباً مهماً من أسباب فشل الديمقراطية الحديثة ، هو تقاعسها عن تحقيق إنجازات ضرورية فى النظامين السياسى والاجتماعى ، فأدى هذا التقاعس إلى رجحان التناقضات القائمة فى الاقتصاد المبنى على قوة المال التوسعية ، وعلى

أنانية الطبقات المتمولة ، وعلى انشقاق الطبقة العاملة ، المأخوذة بصوفية المبدأ الماركسى الثورى .. فحالت هذه التناقضات دون ترسيخ التعاليم الديمقراطية فى الحياة الاجتماعية ، وزاد من هذا الإخفاق عجز المجتمعات الحديثة عن مواجهة الفقر ، وتشويهها لإنسانية العمل ، وتقصيرها فى إزالة استغلال الإنسان للإنسان » (١) .

ويصدر عن المفكر الأرثوذكسى « نيقولا برديف » نقد أشد ، فيقول : « لقد بدأت أزمة الديمقراطية منذ أمد بعيد .. وأول إخفاق لها هو عجز الثورة الفرنسية عن إنجاز ما وعدت به ، ولذلك أصبحت الديمقراطيات اليوم فى حالة قبيحة من الضعف والاستياء ، تأكلها الخلافات الداخلية ، وتنقصها الحياة ، ويستعصى عليها الأمل فى المستقبل ، فهى تنادى بالحرية ، ولكن هذه الحرية هى اللامبالاة تجاه الخير والشر ، والصواب والخطأ .. وقد بدأت ترتاب فيما تنطوى عليه آلية الاقتراع العام من حق » (٢) .

* *

● الجهل العميق بحقيقة نظام الإسلام :

ثامناً : هذه الأسباب كلها لم تكن كافية لاستبدال الاشتراكية الثورية بالليبرالية الديمقراطية ، لو لم يكن معها هذا السبب الهام العميق ، وهو الجهل بالإسلام .. بوصفه « أيديولوچية » شاملة متفردة ، ونظام حياة كاملاً ، أودع الله فيه من الأصول والأحكام والخصائص ، ما يكفل السعادة والطمأنينة والحياة الطيبة للفرد ، وللأسرة ، وللمجتمع .. وللعالم كله ، لو التزم الناس بمنهجه ، واهتدوا بهداه .

ولم يأت هذا الجهل اعتباطاً ، بل جاء نتيجة منطقية للغزو الفكرى ، الذى مارسه الاستعمار والتبشير فى بلادنا منذ زمن طويل ، كما بيّنا ذلك فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

---

(١) الإسلام وتحديات العصر ص ١٣٥ - ١٣٦ (٢) نفس المرجع السابق .

وكان أكثر الناس جهلاً بحقيقة نظام الإسلام هم الذين هيأت لهم الأوضاع المخططة المدروسة أن يكونوا فى موضع القيادة الفكرية والسياسية للشعوب العربية والإسلامية ، سواء أكانوا مدنيين أم عسكريين .

لهذا لم يكن غريباً أن يبحثوا عن أى بديل لليبرالية الهزيلة ، إلا الإسلام ، وأن يولوا وجوهم شطر كل قِبْلة إلا شطر تراثنا وحضارتنا الربانية الإنسانية ، وأن يفتشوا عن أى مصدر للإلهام إلا أن يكون القرآن ، أو هَدْى محمد عليه الصلاة والسلام .

لقد سلبهم الاستعمار الثقافى الثقة بأنفسهم ، بحضارتهم ، بتراثهم ، بنبيهم ، بقرآنهم ، بربهم عَزَّ وجَلَّ !

وغرس فى مكان ذلك كله الثقة بالغرب وحضارته وثقافته وأفكاره ونظمه وتقاليده ومُثُله وقِيَمه ، وكل ما يجىء من عنده .

وكان هذا هو أعظم نصر حققه الغرب فى ديار العرب والإسلام .

وكانت هذه هى أفدح خسارة منى بها العرب والمسلمون ، إنها خسارة دونها ما سفكه الغزاة المستعمرون من دماء ، وما استنزفوه من ثروات المنطقة وخيراتها سراً وعلانية .

وأى خسارة بل أى نكبة أكبر من أن تجد مسلماً - من أبوين مسلمين ، وأجداد عريقين فى الإسلام - لا يعرف من دينه شيئاً إلا ما لُقِّنه - أو يُلَقِّنه - على أيدى الخواجات المبشِّرين والمستشرقين ؟! أن تجد محمداً وأحمد ، ومصطفى وحسناً وحسيناً وعبد الله وعبد الرحمن .. وغير ذلك مما حُمِّدَ وعُبِّدَ من الأسماء ، وهم - مع هذا - يتنكرون للإسلام ، وينظرون إليه من خلال نظرة الأوروبيين فى عصر التنوير إلى المسيحية والكنيسة ورجال الكهنوت !!

* * *

● عجز القوى الإسلامية عن علاج هذا الجهل :

ولم تستطع القوى الإسلامية إلى اليوم أن تعالج الجهل المتفشى - لدى جمهور المثقفين - بدينهم وتراثهم وحضارتهم .

أولاً : لأنه من نوع « الجهل المركّب » فهم يجهلون ، ويجهلون أنهم يجهلون ، بل هم ينظرون إلى أنفسهم أنهم وحدهم الدعاة العارفون بحقائق الوجود والكون والحياة ، فكيف يضعون أنفسهم موضع التلاميذ لأناس يعدونهم متخلفين رجعيين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ..

وثانياً : لأن بعض القوى الإسلامية - أو المحسوبة على الإسلاميين - ينقصها الفهم الصحيح لحقيقة الإسلام .. وشمول رسالته ، وخصائص نظامه للحياة ، وتصوره للوجود ، وهى إنما تهتم بجانب واحد من الإسلام على حساب جوانب أخرى ، وهى لا تستقى فهمها للإسلام من ينابيعه الصافية الأولى : الكتاب والسُنّة كما فهمها الصحابة ومَن تبعهم بإحسان من سَلَف هذه الأمة ، بل تتلقى فهمها من الطوائف التى تنتسب إليها ، دون نقد ولا تمحيص ، وبخاصة أقوال المتأخرين من المؤلفين فى عصور الابتداع والتقليد وانحطاط التفكير الإسلامى والسلوك الإسلامى .

وثالثاً : لأن بعض هذه القوى شغلها الدفاع عن نفسها ، والرد على خصومها التاريخيين والمعاصرين ، أكثر مما شغلها الدفاع عن رسالة الإسلام ، وأمة الإسلام ، وحكم الإسلام ، ومصاير المسلمين ، والرد على خصوم الإسلام الحاضرين ، وأعدائه المتربصين به من كل جانب من صهيونيين وصليبيين وشيوعيين ، ووثنيين ، ومنافقين .

ولهذا تجد فى بلد إسلامى صراعاً بين المذهبيين واللامذهبيين ، وفى بلد ثان

---

(١) البقرة : ١٣

حرباً بين السَلَفيين والمتصوفين ، وفى بلد آخر جدلاً بين الحنفيين وأهل الحديث .. إلى غير ذلك من الفِرق والجماعات .. فى حين أن اللادينيين يحاربونهم جميعاً ، وإن تفاوتت درجة الحرب طبعاً .

إن بعض هذه الطوائف - المنسوبة إلى الإسلام وثقافته - تؤثر تأييد الماركسيين ، ومناصرة القوميين العلمانيين ، على أن تقف فى صف جماعة إسلامية خالصة الإسلام ، لأنها تعارضها فى فهم بعض القضايا الجزئية للعقيدة أو للشريعة الإسلامية !

ورابعاً : لأن بعض القوى الإسلامية مشغول - كل الشغل - بقضايا جزئية ، أو قضايا فات أوانها ، أو بمعارك جانبية أو وهمية ، عن المعركة الكبرى ، وعن القضية المصيرية الأولى .

إن بعض القوى الإسلامية استهلكها الجدل والتنازع حول مشكلة « خلق القرآن » أو « آيات الصفات وأحاديثها » أو « أفعال العباد » وما فيها من خلاف ، وما شابهها .

وآخرون شغلهم استنباط علوم الطب والفيزياء والفلك والذَرَّة من القرآن الكريم .

وغيرهم يرد على شبهات المعتزلة أو الجهمية أو الخوارج أو غيرهم من الفِرَق التى لم يعد لها وجود إلا فى الكتب ! ويدع شبهات الشيوعيين والمبشِّرين والمستشرقين ، وتلاميذهم وعملائهم فى بلاد المسلمين !

هذا مع أن المعركة الفكرية الأولى الآن هى معركة العقيدة الإسلامية .. معركة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وقضية العرب والمسلمين الأولى الآن هى : هل يقادون بهداية الإسلام ، ومنهجه الرحب ، وشريعته السمحة ، أم يقادون بمبادىء وحلول مستوردة من الشرق أو الغرب ؟

وكل تبديد للطاقات الإسلامية ، أو تحويل للقوى الإسلامية عن هذه القضية ، وتلك المعركة ، هو فى الواقع إضعاف للإسلام فى مجابهة أعدائه ، وتفريق

لجنوده حيث يجب أن يجتمعوا ، وخيانة له وطعن فى ظهره ، حيث يجب أن يؤمِّن ويُحمى .

وخامساً : لأن القوى الإسلامية الواعية ، التى فهمت الإسلام فهماً صحيحاً ، وآمنت به إيماناً عميقاً ، ووقفت حياتها وجهودها على نصرته والدعوة إليه - ديناً ودولة ، عقيدة ونظاماً ، عبادة وقيادة ، مصحفاً وسيفاً - تكالبت عليها كل القوى المعادية لحكم الإسلام ، ولعودة نظامه إلى الحياة ، فى الداخل والخارج ، فلا تكاد هذه الطلائع الإسلامية الواعية المؤمنة تخرج من محنة إلا لتدخل فى أخرى ، ولا تكاد تلتقط أنفاسها حتى تدبر لها مكيدة أو مؤامرة جديدة ، بحيث لا تجد وقتاً تفيق فيه من توالى الضربات الوحشية على رأسها ، فضلاً عن حملات التشويش والتشويه والتنفير .

إن هذه الطلائع هى مبعث الأمل ، فى تغيير الأفهام السطحية والجزئية والتحريفية للإسلام ، إلى فهم شامل صحيح لهذا الدين ، وإلى وعى عميق لرسالته ، يرد إليها فِطرتها ، ووضوحها وشمولها وصفاءها وتناسقها وتوازنها .

وهى أيضاً مناط الرجاء فى مطاردة الفكر العلمانى - الليبرالى والماركسى معاً - الذى عشش فى كثير من الرؤوس ، وإعطائها فكراً إسلامياً نقياً من الشوائب والزوائد والانحرافات .

ومهما يكن من المحن المتتابعة على هذه الطلائع ، فواجبها أن تعمل - جهد طاقتها - على مجابهة الغزو الفكرى ، ومطاردة الاستعمار الثقافى ، وتقديم « الإسلام الكامل » صافياً للدارسين والراغبين ، كما يُقدَّم اللبن من بين فرث ودم ، خالصاً سائغاً للشاربين .

* * *

خاتمـــــة

أحسب أن هذه الدراسة قد أثبتت بوضوح أن أمتنا لم تكن فى حاجة إلى حلول مستوردة مستمدة من أيديولوچيات أجنبية عنها ، وأن هذه الحلول المصطنعة لم تكن حتمية تاريخية ، وأكثر من ذلك أنها لم تكن ملائمة ، وأكثر من هذا وذاك أنها كانت معوقة وضارة بدنيا أمتنا ، فضلاً عن مناقضتها لدينها .

وقد حاولت من خلال هذا البحث أن أعطى صورة صادقة لأمتنا تحت سلطان « الأيديولوچيات » المستوردة ، وما جنته عليها بتلك الحلول الدخيلة ، فى مادياتها ومعنوياتها .. ولم أحاول - فى نقل هذه الصورة - أن أتكلم أنا ، بل تركت الوقائع تتكلم بصوتها العالى ، كما لم أحاول أن أستشهد إلا بأصحاب الشأن أنفسهم ، محاولاً أن أكون موضوعياً ما استطعت .. أما التحليل والتعليل فهو لى ، استمددته من منطقى كمسلم ، ومن تجاربى كعربى ، ومن تفكيرى كإنسان .

وكل ما أرجوه من أنصار الحل الليبرالى ، أو الحل الاشتراكى ، أن يقرأوا كتابى بعين المنصف لا بروح المتهم ، وأن يفتحوا صدورهم ، لما فيه من نقد قد يشتد ويقسو فى بعض الأحيان ، ولكن عذرى أن الأمر يتعلق بدين ورسالة ، وبمصير أمة ، ومستقبل حضارة .. كما أن تجبر الجاهلية ، وضغطها الخانق على دعاة الإسلام ، ورفضها لكل لغة للتفاهم إلا للسياط تلهب ، وللنيران تكوى ، وللمشانق تقتل .. وافتراءها على البرآء العيب ، كل هذا جعلنا نتحدث ونكتب بحرارة المظلوم ، ومرارة المكلوم .. ومن حق الملدوغ أن يتأوه ، ومن حق الثكلى أن تبكى .. وقديماً قالوا : « ليست النائحة كالثكلى » !

لقد آن لنا أن نرحب بحرية الكلمة ولو كانت معارضة لاتجاهنا أو سياستنا ، فنحن لن نستفيد شيئاً - بل نتضرر كثيراً - إذا أخرسنا الألسنة ، وكسرنا الأقلام ، فقد خلق الله الألسنة لتتكلم ، والأقلام لتكتب وتعبر .

ويزداد تضررنا إذا نحن أسكتنا الألسنة والأقلام الحرة ، وأرخينا العنان لألسنة المداحين ، وأقلام المنافقين .. وكذلك إذا تركنا لوناً فكرياً واحداً يعرض نفسه دون مزاحم أو منافس ، محتكراً سوق الصحافة والإعلام ، والتأليف والترجمة والنشر .. فنفرض على المجتمع بضاعة كبضاعة الفكر الماركسى اللينينى الدخيل ، على حين توضع كل الحواجز والمعوقات فى طريق الفكر الإسلامى الأصيل !

والمعقول أن يكون الأمر بالعكس تماماً : أن ينفرد الفكر الإسلامى بالسوق فى أرض الإسلام ، وديار المسلمين ، ككل البضائع الوطنية فى بلاد تسير فى ظل اقتصاد موجّه !

فإذا لم يكن « الانفراد » للفكر الإسلامى ، فلتكن له - على الأقل - الأولوية فى العرض والترويج والحماية والرعاية .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فأدنى ما يقبله منطق أن نُسوِّى بين الأصيل والدخيل ، ولا نُضيِّق - كل التضييق - على البضاعة الوطنية .. ونفسح المجال - كل المجال - للبضاعة المستوردة .. أدنى ما يقبله المنطق هنا أن ندع سوق الفكر مفتوحة للجميع .. خاضعة لقانون العَرْض والطلب ، وكلٌ يعرض ما عنده ، والكلمة الأخيرة للشعب ، والبقاء للأصلح .

لهذا ، أرجو من أُولى الأمر فى بلادنا العربية ، القائمين على رقابة المطبوعات فيها : ألا يحولوا بين هذا الكتاب وبين الراغبين فى قراءته ، فهم يُخرجون كل عام مئات من الكتب تؤيدهم وتخدم اتجاههم وسياستهم ، إلى جوار المجلات ، والصحافة والدوريات المختلفة ، فضلاً عن الإذاعة والتليفزيون ، فكيف يخاف مَن يملك هذه الأجهزة الجبارة كتاباً معيَّناً يوزع منه آلاف محدودة ؟!

وليت شعرى ، ماذا يضير القوم أن يظهر فى سوق الفكر كتاب يعارضهم أو يخالف وجهتهم ، قد يجدون هم فيه - أو يجد فيه غيرهم - كلمة تنبه غافلاً إلى الحق ، أو تذكّر ناسياً باللّه ، أو ترد متطرفاً إلى الاعتدال .

وليس فى الناس أحد أصغر من أن يَنصح ، ولا أكبر من أن يُنصح .

ورحم اللّه عمر الذى قال لمن نصحه حين قال له : اتق اللّه يا عمر : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

ولم يكن عمر رضى اللّه عنه يرحب بالنقد فقط ، بل كان يدعو إليه ويغرى به ، بمثل قوله : مَن رأى منكم فىَّ اعوجاجاً فليقوِّمه .. فلما قال له رجل : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، لم يأمر بالقبض عليه ، ولم يضع اسمه فى القوائم السود ، بل لم يتمعر وجهه غضباً لهذه الكلمة ، وإنما قال : الحمد اللّه ، الذى جعل فى رعية عمر ، مَن يقوِّمه بسيفه إذا تعوَّج !

هذا ، ونحن لا نقوِّم بالسيف بل بالقلم .

إن سياسة استمرار « إغلاق النوافذ » على الشعب ، وحبسه فى « إطار » فكرى معيَّن - بدعوى حمايته من أعدائه « الرجعيين » أو من « الثورة المضادة » ، أو غير ذلك - فيه اتهام للشعب بالقصور والطفولة ، وحاجته إلى وصاية دائمة من فئة من الناس ، تتحكم فيه تحكم « القَيِّم » فى اليتيم القاصر .. وفضلاً عن ذلك فإن هذه السياسة « إغلاق النوافذ » لا تنتج إلا فساد الهواء ، وسرعة قابليته للتلوث وانتشار الأمراض .

أما « النوافذ المفتوحة » فبها يتجدد الهواء ، وتتجدد معه الحياة والنشاط .

إن أمتنا أحوج ما تكون إلى الحوار البنَّاء ، والمناقشة الحرة ، وخصوصاً حول الأهداف الكبرى ، وحول القضايا المصيرية ، وحول الاتجاهات الفكرية (وبالأخص بعد أن جربنا سياسة الضغط والاستبداد ، فلم نجن من ورائها إلا الهزيمة والعار ، والفساد والانهيار) .. فمن خلال هذا الحوار الشجاع ، والجو الطلق ،

تتلاقح الآراء ، وتنضج الأفكار ، ويتميز الصواب من الخطأ ، والصحيح من الزيف : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (١) ..

إن أخطر ما نعانيه فى هذه المرحلة من تاريخنا ، أن الأنظمة الحاكمة تعتبر « الكلمة الحرة » مؤامرة عليها ! وتعتبر « الكتاب الحر » بضاعة ممنوعة ! كأنما هو قنبلة يُخشى أن تتفجر .. أو رصاصة يُخشى أن تنطلق ، مع أن التفكير فى تفجير القنابل ، وإطلاق الرصاص ، إنما يأتى نتيجة الكبت للأفكار ، أو الحبس للألسنة والأقلام ! وشدة الضغط تولد الانفجار ، كما هو قانون الطبيعة والحياة !

إن الخطأ - كل الخطأ - أن يُرغم الناس - كل الناس - على اتجاه فكرى أو سياسى واحد ، فمَن عارض ذلك كان عميلاً أو خائناً أو عدواً .. إن هذا ضد طبيعة البَشر ، الذين خلقهم الله مختلفين ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة !

إن كتابى هذا ليس موجّهاً ضد شخص معيَّن ، ولا ضد فئة معيَّنة ، ولكنه موجّه ضد كل مَن يثنى عنان هذه الأمة عن غايتها ، أو يضلها عن طريقها ، أو يقف حائلاً بينها وبين العودة إلى دينها .. ضد الذين يملأون آذان الشعوب بكلامهم الدخيل صباح مساء ، ولا يسمحون لأحد غيرهم أن يقول للشعب كلمة واحدة .

ضد الذين يتآمرون على هذه الأمة فى ظلمة الليل ، ويتظاهرون بالحماس لها والدفاع عنها فى ضحوة النهار !

ضد المتألهين فى الأرض الذين يريدون أن يجعلوا من أقوالهم « قرآناً » ، ومن أفكارهم « عقيدة » ، ومن تجاربهم « شريعة » ، تساق الأمة إلى اتباعها ، دون أن يسمحوا لها أن تعيش وفقاً لقرآن ربها ، وعقيدته وشريعته المنزّلة المعصومة .

---

(١) الرعد : ١٧

أما الذين أخطأوا الطريق غافلين أو مضللّين عنه ، أو جاهلين بحقيقته وعواقبه ، فإنى أدعوهم من كل قلبى أن يراجعوا أنفسهم ، ويغيِّروا مواقفهم ، فإن الدين والعلم والتجربة ، كلها تفرض علينا ضرورة التغيير ، والبحث عن سبيل أخرى غير سبيل « التغريب » الذى أهدر طاقتنا ، وعوَّق سيرنا ، عدداً من العقود .

لقد دخلنا جحر الغرب مرة فلدغتنا عقرب الليبرالية .

ثم دخلناه مرة أخرى فلدغتنا أفعى الاشتراكية .

ولو كنا مؤمنين حقاً ما لُدِغنا من الجحر الواحد مرتين .. لكن ضعف إيماننا ، فتكرر لدغنا !

والمؤسف حقاً أن نُلدغ مرتين ولا نعتبر .. وكأنما نريد أن نبقى الدهر فى جحر العقارب والأفاعى !

بَيْد أنى أحسّ أن عهداً جديداً يوشك أن يبزغ فجره على شعوبنا ، بعد أن تكشف لها عوار الاتجاهات المستوردة : يمينها ويسارها ، غربيها وشرقيها .. وبعد أن تبينت جناية هذه الاتجاهات على شخصيتها وعجزها عن حل مشكلاتها ، وإفلاسها فى تحقيق آمالها ، وإثبات ذاتها .

أجل .. أحسّ أن الفكر المستورد قد أخذ يفقد بريقه ، وأن موجة الغلو « الثورى » قد بدأت تنحسر ، وأن بلداً كمصر العربية المسلمة بشعبها وبتاريخها ، قد طفق يراجع نفسه ، ويقترب من الوسط ، ويتخلص من كثير من « العُقَد » التى كبّلته طيلة سنوات مضت ، إذا صدقت الأنباء ، وصحّت الاستنتاجات .

وهذا ما يجعلنا نؤكد القول : إن الدور القادم ليس لليمين ولا لليسار ، ليس للحل الليبرالى ولا للحل الاشتراكى ، فكلاهما قد جرّب حظه ، واستنفد وقته .. وإنما الدور القادم للحل الطبيعى ، والحل المنطقى ، والحل الحتمى ، لمشكلات هذه الأمة ، وهو : « الحل الإسلامى » ، ولا شىء غير الحل الإسلامى .

* * *